

اللغة بين مشكلات التعلم، والتعليم في ضوء نظريات علم اللغة

Language between learning problems and education in the light of linguistic theories

1فتيحة بلقندوز*

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم-(الجزائر)، fatiha.belguendouz.etu@univ-mosta.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين

2.أ.د عبد القادر الحاج علي

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم-(الجزائر)

تاريخ الإرسال 2020/11/22 تاريخ القبول 2022/05/18 تاريخ النشر 2022/09/23

ملخص:

اللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل يستخدم الكلمة للتعبير، والنافذة التي من خلالها نطل ونعبر، والمفتاح الذهبي الذي يفتح كل الأبواب، والجنح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق. فهو معجزة الله الكبرى لكل ناطق، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده). فاللغة فكر ناطق، والتفكير لغة صامتة.

الكلمات المفتاحية : اللغة، الفكر، التعليم.

Abstract : Language is the first phenomenon in each work that uses the word for expression, the window through which we look and cross, the golden key that opens all doors and the gentle wing that takes us to different horizons. This is God's great miracle for every speaker (and there is nothing that does not praise with His praise). Language is speaking thought and thought is silent language.

Keywords: language – thought – education.:

توطئة:

إن للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فإنها الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة، وبينهم وبين غيرهم، وبها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم. إن القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي. إن اللغة هي الترسنة الثقافية التي تبني الأمة وتحمي كيانها. وقد قال فيلسوف الألمان فيخته: (اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين. إنها الرابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان). ولكل ذاك وغيره كان موضوع بحثنا تحت مسمى "منزلة اللغة وأثرها في التعليم" ونهدف من خلال اختيارنا لهذا الموضوع إلى: الكشف عن بعض جوانب هذا السر الإلهي، وطريقة تحصيله، والاستفادة منه في عملية التعلم. ولقد تشكلت تركيبة هذا البحث من:

أولاً: مفهوم اللغة

جاء علماء فقه اللغة المحدثون فقالوا: "إن الإنسان لا يفكر حتى فيما بينه وبين نفسه، إلا في أثواب من اللغة" وقال الأخطل:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ولعل الصواب يؤكد الصلة الحتمية بين الفكر واللغة¹.

ويرى الدكتور محمود السيد أنّ مفهوم اللغة مفهوم شامل وواسع، لا يقتصر على اللغة المنطوقة، بل يشمل المكتوبة أيضاً، والإشارات، والإيماءات، والتعبيرات الوجهية التي تصاحب عادة سلوك الكلام.²

تعريف اللغة:

تعددت الأقوال في تعريف اللغة واختلفت الآراء في أصل كلمة لغة، قال صاحب المنجد في اللغة والأعلام: "اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، وثمة من يرى بأن كلمة لغة قد تكون مأخوذة من لوغوس اليونانية ومعناها (كلمة)³. وذكر ابن جني في الخصائص: "حدّ اللغة بأثنا: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁴. فاللغة هي الإنسان، وهي الوطن، وهي الأهل، وهي نتيجة التفكير، وهي ما يميّز الإنسان من الحيوان، وهي ثمرة العقل". وأما تصنيفها ومعرفة حروفها فهي فُعلة، من لَعَوْتُ أي تكلمت، وأصلها "لُعِيَّ أَوْ لَعَوَّ، وَجَمَعَهَا (لُعِيَّ) مِثْلُ بُرَّةٍ وَبُرِّيَّ وَ (لُعَاتٍ) أَيْضًا. وَالتَّسْبِيَةُ إِلَيْهَا (لُعَوِيٌّ) وَلَا تَقُلْ: لَعَوِيٌّ"⁵. ويعدّ تعريف ابن جني هذا تعريفاً جامعاً مانعاً، حيث يتضمن العناصر الأساس للغة وهي كونها:

- 1- نظاماً من الأصوات المنطوقة.
 - 2- يستخدمها مجتمع من بني الإنسان.
 - 3- تستخدم للتفاهم والتعبير عن المشاعر والأفكار.
- أما ابن خلدون فقد قال: "اعلم أن اللغة في المتعارف، هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل اللسان، فلا بد أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها، هو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم."⁶
- نشأة اللغة (مبدأ اللغات: هل اللغات توقيفية أو اصطلاحية؟).**

إن طبيعة موضوع علم اللغة، تلك الظاهرة الإنسانية التي هي اللغة، التي هي متطورة بطبيعتها، تفرض على الباحث أن يتساءل أول ما يتساءل:

كيف تكون للإنسان لغة؟ كيف توصل الإنسان إلى هذا النظام؟ أتوصل إليه بنفسه، أم أوحى به إليه إلهاء؟ ذلك موضوع قد شغل الناس من قديم.⁷

وكان اختلافهم في ذلك على ثلاثة مذاهب سنعرض لها إن شاء الله:

المذهب الأول: أنه يجوز أن تكون اللغات كلها توقيفية، ويجوز أن تكون كلها اصطلاحية، ويجوز أن يكون بعض هذه اللغات توقيفي، وبعضها اصطلاحية، فإن جميع ذلك محتمل وممكن. ذهب إلى ذلك القاضيان: أبو بكر الباقلاني، وأبو يعلى، وكثير من أهل التحقيق. وقال - صاحب المهدّب في علم أصول الفقه المّقارن - وهو الحق عندي⁸.

المذهب الثاني: أن اللغات توقيفية، أي: أن الواضع هو الله عز وجل، ووضعه متلقى من جهته إما بالوحي، أو بأن يخلق الله تعالى لواحد، أو لجماعة من الخلق العلم بأن هذه الألفاظ واللغات قصدت للدلالة على المعاني. وهو مذهب أبي الحسن الأشعري، والظاهرية، وبعض المتكلمين، وبعض الفقهاء.

المذهب الثالث: أن اللغات اصطلاحية.

"ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ أَرْبَابِ اللُّغَاتِ وَاصْطِلَاحِهِمْ، وَأَنَّ وَاحِدًا أَوْ جَمَاعَةً وَضَعُوا هَذِهِ الْأَلْفَافِ بِإِزَاءِ مَعَانِيهَا، ثُمَّ حَصَلَ تَعْرِيفُ الْبَاقِينَ بِالْإِشَارَةِ وَالتَّكْرَارِ كَمَا يَفْعَلُ الْوَالِدَانِ بِالْوَلَدِ الرِّضِيعِ، وَكَمَا يُعَرِّفُ الْأَخْرَسُ مَا فِي ضَمِيرِهِ بِالْإِشَارَةِ وَالتَّكْرَارِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى؛ مُحْتَجِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ }⁹ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيمِ اللُّغَةِ عَلَى الْبُعْثَةِ وَالتَّوْقِيفِ"¹⁰.

المحصلة:

إن "علم اللغة" يميل إلى أن ينحى البحث في "نشأة اللغة" من مجال دراسته، أو هذا هو رأي الغالبية من علمائه. وذلك لأن "نشأة اللغة" موضوع شائك لا سبيل إلى القطع فيه برأي، أو إلى الوصول في شأنه إلى رأي علمي، إنه بطبيعته موضوع يستحيل على الدراسة العلمية الموضوعية: وكل ما يقال فيه هو من قبيل الفروض التي لا تستند إلى أسس سليمة. و"النظريات" أو "الفروض" التي قدمها الباحثون في نشأة اللغة ضربا من "الميتافيزيقا". ولكن علم اللغة يرجئ تقرير الحق العلمي في نشأة اللغة إلى أن يتم جلاء ما يكتنفه من غموض قد يكشف عنه تقدم علم الأجناس البشرية، وعلم الوراثة، وغيرهما من العلوم الإنسانية، ولو أن الأرجح أن تقدم هذه العلوم وسواها لن يمكننا آخر الأمر من معرفة الظروف التي نشأت فيها اللغة معرفة يقينية"¹¹.

ومجمل القول أنه: "لم يحظ أي موضوع لغوي بالنظر فيه، والكتابة عنه. واختلاف المذاهب فيه مثل ما حظي به هذا الموضوع ومع هذا" فلم يصل الباحثون فيه إلى رأي سديد يقتنع به الباحث"¹²

القول في تطور اللغة عند المعاصرين

ما زال شائعا إلى حد ما أن تسمع غير المتخصصين يتكلمون عن لغات بدائية وهم يرددون حتى الأسطورة التي يحيط الشك بها من أن هناك بعض الشعوب تتكون لغتهم من مزاجية مائة كلمة مأخوذة من الإيماءات، والحقيقة أن كل لغة درست حتى الآن - مهما كان المجتمع الذي يستخدمها يبدو لنا بدائيا أو غير متحضر في جوانب أخرى برهنت عند البحث أنها نظام اتصالي معقد ومتطور بدرجة عالية "¹³.

أما **النظريات** التي قيلت في نشأة اللغة فتتلخص في:

الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان، فعلمه النطق وأسماء الأشياء.

اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع، والاتفاق، وارتجال ألفاظها ارتجالاً.

الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة، زوّد بها في الأصل جميع أفراد النوع البشري.

اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية، وسارت في سبيل الرقي شيئاً فشيئاً، تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية، وتقدم الحضارة، واتساع نطاق الحياة الاجتماعية، وتعدد حاجات الإنسان.¹⁴

✓ وظيفة اللغة وأهدافها التعليمية.

تعلم اللغة: يقصد بتعلم اللغة: اكتساب المتعلم المهارات التي تمكنه من الحصول على المعلومات واستخدامها استخداما وظيفيا لمختلف الأغراض"¹⁵. إذا التعليم تلك العملية الواعية، المخطط لها من أطراف عديدة؛ لتمكين الفرد من تعلم اللغة، لأداء وظائف حياته الأساسية، واكتساب اللغة، يتحقق في مجتمع اللغة، بشكل طبيعي، حيث يتعرض الطفل بصورة مستمرة للغة الأم، أما متعلم اللغة، فيتلقاها في بيئة مصطنعة، وفي فترة قصيرة، ومن معلمين غير ناطقين باللغة غالبا. وتنعكس تلك الاختلافات على الطرائق والأساليب، والمادة التعليمية.

وظائف اللغة في حياة الفرد والمجتمع:

تؤدي اللغة وظائف متعددة ومهمة في حياة الفرد والمجتمع، رصدتها العلماء والباحثون، ولعل أهمها: أنها أداة التفكير، ووسيلة التعبير عما يدور في خاطر الإنسان من أفكار، وما في وجدانه من مشاعر وأحاسيس وعواطف.¹⁶ وبها يقضي حاجاته، وينفذ مطالبه، ويحقق مآربه في المجتمع الذي يحيا فيه، وبوساطتها ينقل تجربته إلى الآخرين. كما أنه يطلع على تجارب أمته الحاضرة والماضية، وعلى تجارب الأمم الأخرى وخبراتها. يضاف إلى ذلك أنها وسيلة المرء للتحكم في بيئته، لأنها أداة التفكير وثمرته، وبها تسهل عمليات

التفاعل الاجتماعي، والانصهار الفكري بين أفراد المجتمع والأمة، وهي مستودع تراث الأمة لأن كل كلمة تحمل في طياتها خبرة بشرية.¹⁷

واللغة بوصفها نظام من الرموز تحقق وظيفتين متكاملتين: الوظيفة الاتصالية، والوظيفة التحريدية. وقد لخص (Sebeok) وظائف اللغة في نقاط ست هي: (انفعالية - تأثيرية - نسبية - ماورا لغوية - شعرية - استمرارية).¹⁸ فهي وسيلة الاتصال والتفاهم بين الناس، وذلك في نطاق الأفراد والجماعات والشعوب، وهي أداة التعلم والتعليم، ولولاها لما أمكن للعملية التعليمية-التعلمية أن تتم، ولانقطعت الصلة بين المعلم والمتعلم، ولتوقفت الحضارة الإنسانية. بل إنها الخزانة التي تحفظ للأمة عقائدها الدينية، وتراثها الثقافي، ونشاطاتها العلمية، وفيها صور الآمال والأمانى للأجيال الناشئة.¹⁹ وهكذا نرى بأن اللغات هي ذاكرة الإنسانية، وواسطة نقل الأفكار، والمعارف، من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأخلاف، فهي تمثل إحدى الروابط بين الناطقين بها. إذ تسهل عليهم الاتصال والتفاهم.

وأخيراً إن اللغة هي الأداة التي تمكن الموهوبين والعباقرة، في كل قوم من إبراز مواهبهم، وإبداعاتهم، ليكونوا قادة الأمة ومفكرها وعلمائها.²⁰

أهداف تعليم اللغة وتعلمها: يسعى متعلم اللغة إلى تحقيق ثلاثة أهداف، هي:

أولاً: الكفاية اللغوية: والمقصود بها سيطرة المتعلم على النظام الصوتي للغة العربية، تمييزاً وإنتاجاً، ومعرفته بتركيب اللغة، وقواعدها الأساسية: نظرياً ووظيفياً، والإلمام بقدر ملائم من مفردات اللغة، للفهم والاستعمال.

ثانياً: الكفاية الاتصالية: ونعني بها قدرة المتعلم على استخدام اللغة العربية بصورة تلقائية، والتعبير بطلاقة عن أفكاره وخبراته، مع تمكنه من استيعاب ما يتلقى من اللغة في يسر وسهولة.

ثالثاً: الكفاية الثقافية: ويقصد بها فهم ما تحمله اللغة العربية من ثقافة، تعبر عن أفكار أصحابها وتجاربهم وقيمهم وعاداتهم وآدابهم وفنونهم. وعلى مدرس اللغة العربية تنمية هذه الكفايات الثلاث، لدى طلابه من بداية برنامج تعليم اللغة العربية إلى نهايته، وفي جميع المراحل والمستويات.

تحقيق أهداف متعلم اللغة:

يقوم مدرس اللغة، ومعدو المادة التعليمية، ببذل كل ما لديهم من مهارات وطاقات، لتمكين المتعلم من إتقان الكفايات الثلاث: اللغوية والاتصالية والثقافية. وبملاحظة ما يحققه الطلاب من تعلم، ظهر أن كثيرين منهم يقفون عند حدود الكفاية اللغوية، ويعجزون عن استخدام اللغة العربية وسيلة اتصال. وهناك فريق ثانٍ من الطلاب، يحقق مستوى طيباً من الاتصال باللغة العربية، غير أنه يرتكب كثيراً من الأخطاء اللغوية. وهناك فريق ثالث من الطلاب يلم بكثير من قواعد اللغة العربية، ويمكنه التواصل بها، غير أنه يجهل الثقافة العربية. ويمكن القول، بأن الطوائف الثلاث من الطلاب لم تبلغ الغاية المنشودة من تعلم اللغة العربية، وهي إتقان الكفايات الثلاث بمستوى طيب، وبشكل متوازن.

✓ **اللغة بين مشكلات التعلم، والتعليم في ضوء نظريات علم اللغة**

مشكلات تعليم اللغة والصعوبات التي تواجهها:

إشكالية صعوبة القواعد في اللغة:

وإن من يشكو من كثرة جموع التكسير في العربية، وغلبة الشذوذ على قواعد هذا الجمع فيها، سيحمد للعربية الاطراد النسبي في هذه القواعد، إذا درس اللغة الألمانية، ورأى كثرة صيغ هذه الجموع فيها، وفقدان القاعدة التي تخضع لها تماماً، إلى درجة أن كل كتاب في تعليم قواعد الألمانية، تبدأ صفحاته الأولى بهذه العبارة: "أحفظ مع كل اسم أداة تعريفه وصيغته جمعه؛ لأنه ليست هناك قاعدة لذلك!"

فليست العربية إذن، بدعا بين اللغات في صعوبة القواعد، غير أن شيئا من هذه الصعوبة يعود بالتأكيد إلى طريقة عرض النحويين لقواعدها، فقد خلطوا في هذه القواعد بين الواقع اللغوي والمنطق العقلي، وبعدها عن وصف الواقع إلى المماحيكات اللفظية، وامتألت كتبهم بالجلد والخلافات العقيمة، فضل المتعلم وسط هذا الركام الهائل من الآراء المتناقضة في بعض الأحيان. والحقيقة أن القواعد الأساسية لنحو اللغة العربية، يمكن أن تستخلص في صفحات قليلة مصفاة من هذا الحشو الذي لا طائل وراءه²¹. والواقع أن هناك مشكلات متعددة تتعلق بتعليم اللغة العربية وتتمثل في:

- العامة وآثارها السلبية.
- ضعف إعداد مدرسي اللغة.
- عدم بناء المناهج على أسس علمية موضوعية.
- تخلف طرائق تدريس اللغة.
- عدم وضوح الأهداف في الأذهان.
- نقص المكتبات المدرسية.²²
- عدم عناية مدرسي اللغة العربية باستخدام اللغة العربية الصحيحة (الفصيحة).
- منهج تعليم اللغة العربية لا يخرج القارئ المناسب للعصر.
- عدم توافر قاموس لغوي حديث في كل مرحلة من مراحل التعليم العام.
- ازدحام النحو بالقواعد النحوية واضطرابها.
- افتقار طرائق تعليم القراءة للمبتدئين إلى دراسات علمية.
- الانتقال الفجائي في التعليم من عامة الطفل إلى اللغة الفصيحة.
- اضطراب المستوى اللغوي بين كتب المواد، بل بين كتب المادة الواحدة في الصف الواحد.
- دراسة الأدب والنصوص لا تصل التلميذ بنتائج حاضرة، وتراث ماضيه وصلاً يظهر أثره في حياته.
- نقص عدد المعلمين المتخصصين وانخفاض مستواهم.
- بُعد اللغة التي يتعلمها التلاميذ في المدارس عن فصيح العصر.²³

السر في إخفاقنا في تعليم العربية

لقد كثر البحث عن تعليم الفصحى لأبنائنا، كما ينبغي، فلم تفلح مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا عموماً في إنشاء علاقة الود بين المتعلمين وهذه اللغة، ولم تنجح في غرس حب القراءة في النشء منذ الصغر. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى اعتقاد الكثيرين منا، بأن في تعليم قواعد اللغة تعليماً للغة. وتفكيرنا في الأمر على هذا النحو، كتفكير من يعلم قواعد العروض لكي ينشئ شاعراً، أو كتفكير من يحفظ صفحتين في قواعد قيادة السيارات، ثم يظن أنه بهذا الحفظ وحده، قد أصبح سائقاً ماهراً، فإن اهتمامنا بتعليم القواعد النحوية في مرحلة مبكرة من حياة الطفل، جعلنا نظن أن مقياس إجادة اللغة، هو البراعة في حفظ المصطلحات النحوية، والتفنن في عد مسوغات الابتداء بالنكرة، ومجيء الحال معرفة، وأحوال الصفة المشبهة وما إلى ذلك. كل هذه الأمور وأمثالها، يوردها التلميذ في هذه السن المبكرة بلا وعي، ثم ينساها عقب الفراغ من الامتحان، ولا يبقى في ذهنه منها إلا التندر على صعوبة اللغة العربية، وما لاقاه في تعلمها من عناء ومشقة. خذ لغة التخاطب مثلاً، وانظر كيف يتعلمها الطفل؟! إننا لا نشرح له أية قاعدة من قواعدها، ولكن الذي يحدث هو أننا نتكلم، والطفل يحاكي ويقلد، حتى إذا أخطأ لا يجد من حوله يشرحون له القاعدة، وإنما يكررون الصواب أمامه ... وهكذا وعن هذه الطريق وحدها، يلم الطفل بتراكيب اللغة ومعانيها حفظاً

وفهما، ويهضم كل ذلك ثم يقيس عليه، ويكتمل نضج لغة الخطاب لديه في وقت قصير دون أن يعلم شيئا عن قواعدها وقوانينها وضوابطها.

وإذا كان هذا هو المنهج الفطري في تعلم اللغة، فلماذا لا نفيد منه في تعلم العربية الفصحى؟ حقا إن العربية الفصحى لا يتكلمها الناس في كل وقت حول التلميذ، كما نتحدث بالعامية أمام الطفل، ولكن هناك طريق آخر يقوم مقام السماع، وهو طريق القراءة، قراءة النصوص الأدبية القديمة، وما نسج على نمطها في العصور المختلفة، قراءة واعية صابرة، مع حفظ الكثير والكثير جدا، من هذه النصوص الجيدة شعرا ونثرا. وعلى رأس هذه النصوص جميعها بالطبع، نص القرآن العظيم، وفي هذه الحالة تتكون الملكة القادرة على محاكاة هذه النصوص، والنسج على منوالها. ولقد نادى بمثل ذلك العلامة ابن خلدون، فقال: "وجه التعليم لمن يتغنى هذه الملكة ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم، الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث، وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم، حتى ينتزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور، منزلة من عاش بينهم، ولقن العبارة منهم"²⁴.

هذا ما قاله ابن خلدون. فلا تزال أمامنا فرصة الإفادة من القراءة الواعية للنصوص الجيدة، وعندئذ تتكون السليقة اللغوية عند أبناء العربية، وتجري ألسنتهم بالفصحى العذبة، وتأتي دروس القواعد، فننظم هذا الكيان اللغوي، الذي نما وترعرع في ظل النصوص. وعندها لا يجد أعداء العربية ما يقولونه، حول صعوبة قواعدها، أو ضعف المتعلمين بها²⁵.

الفرق بين علم اللغة وتعليم اللغة ، وبين عالم اللغة ومدرس اللغة²⁶ :

علم اللغة، هو العلم الذي يبحث في اللغة، ويتخذها موضوعا له، فيدرسها من النواحي الوصفية، والتاريخية، والمقارنة، كما يدرس العلاقات الكائنة بين اللغات المختلفة، أو بين مجموعة من هذه اللغات، ويدرس وظائف اللغة وأساليبها المتعددة، وعلاقتها بالنظم الاجتماعية المختلفة. وموضوع علم اللغة، هو كل النشاط للإنسان في الماضي والحاضر، يستوي في هذا الإنساني البدائي والمتحضر، واللغات الحية والميتة، والقديمة والحديثة، دون اعتبار لصحة أو لحن، أو جودة أو رداءة، أو غير ذلك. واللغة التي يبحث فيها هذا العلم، ليست هي اللغة العربية أو الإنجليزية أو الألمانية، وإنما هي اللغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها، هي "اللغة" التي تظهر وتتحقق، في أشكال لغات أخرى كثيرة ولهجات متعددة، وصور مختلفة من صور "الكلام" الإنساني، فمع أن اللغة العربية، تختلف عن الإنجليزية، وهذه تختلف عن الألمانية، فإن هناك أصولا وخصائص جوهرية، تجمع ما بين هذه اللغات، كما تجمع بينها وبين سائر اللغات²⁷.

يعد علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics ثمرة اللقاء بين علم اللغة والتربية. موضوع علم اللغة التطبيقي هو الإفادة من علم اللغة بمناهجه ونتائج دراساته، وتطبيق هذا كله في مجال تعليم اللغات ، ومن ثم أصبح من المتفق عليه في علم اللغة التطبيقي أن يعد تعليم النطق أساسا لتعليم الكتابة. فيبدأ تعليم اللغة بالجانب الصوتي ثم تأتي كيفية الكتابة بعد ذلك، مع ملاحظة أن الفروق بين البنية الصوتية للغة ونظام كتابتها يشكل صعوبات التدوين، ومن ثم ينبغي الإشارة إليها باعتبارها ظواهر خاصة بالكتابة لا باللغة²⁸.

أصبح واضحا أن علم اللغة شيء ، وأن تعليم اللغة شيء آخر ، رغم ما بينهما من صلات وثيقة . وقد أدرك كثير من اللغويين أن مهمتهم الأساسية ، هي الوصف العلمي للظاهرة اللغوية ، وتحليل بنيتها . أما تعليم اللغة فمجال آخر، يخرج عن دائرة اختصاصهم. فمهمة عالم اللغة تنتهي بمجرد أن يقدم لنا بكل دقة أعماله الوصفية، وفيما وراء ذلك، فإما أن يحول عالم اللغة الوصفي نفسه إلى معلم لغة "وهو غالبا غير مؤهل لذلك"، الأولى أن يترك الميدان لمعلم اللغة المؤهل²⁹. فهذا خارج نطاق تخصصه، الأمر الذي يجعل اللغوي في حديثه عن تدريس اللغة ، أو تعلمها ، لا يعكس أية خبرة ، بل ربما قال ، أو كتب أشد الأمور سخفا، وأقلها واقعية ، وهذا ما حدث بالفعل في الماضي ، وسوف يتكرر حدوثه ، ما دمنا نخطط للغويين بمهالة من الحكمة الشاملة) .

✓ مراحل اكتساب اللغة وتعلمها

اكتساب اللغة

يقصد باكتساب اللغة العملية غير الشعورية، وغير المقصودة، التي يتم بها تعلم اللغة الأم، ذلك أن الفرد يكتسب لغته الأم، في مواقف طبيعية، وهو غير واع بذلك، ودون أن يكون هناك تعليم مخطط له، وهذا ما يحدث للأطفال، وهم يكتسبون لغتهم الأولى، فهم لا يتلقون دروساً منتظمة في قواعد اللغة، وطرائق استعمالها، وإنما يعتمدون على أنفسهم، في عملية التعلم، مستعينين بتلك القدرة، التي زودهم بها الله تعالى، والتي تمكنهم من اكتساب اللغة في فترة قصيرة، وبمستوى رفيع .

- مراحل تعلم اللغة -

التحصيل الأولي للغة عند الطفل (المعنى):

إن الطفل عندما يأخذ في تعلم اللغة، لا يتعلم أصواتها أولاً، ثم نحوها، ثم معاني الكلمات والعبارات، وهو لا يسمع اللغة كلمة كلمة، إنه يسمع كلاماً متصلاً مرتبطاً بسياقات خاصة وبكثرة التكرار والتقليد وإرشاد من حوله من المتكلمين تعني بعض الأصوات "الكلمات" عنده شيئاً ما. ومن الملاحظ أن الأطفال يدركون معاني الأصوات قبل قدرتهم على إخراج هذه الأصوات. ومن أول ما يحصله الطفل معاني المحسوسات ولا سيما معاني الكلمات الدالة على أعضاء الجسم الإنساني، وعلى الأدوات والموضوعات التي يستعملها. ثم يحين وقت يدرك فيه أن كلمة "عين" مثلاً تدل على هذا الجزء من جسمه، وأن "لبن" تعني هذا الذي يرضعه، وأن "حمار" تدل على هذا الجسم الذي يراه من وراء نافذته ويسمع نحيقه. ولكن تحصيل هذه المعاني الحسية نفسها يستغرق منه وقتاً، فهو قد يسمى كلا من الخروف والبقرة والحصان "حماراً"، وقد يطلق على أنفه كلمة "عين". ولكنه عندما يتحقق من أن العين "عين"، نراه يطلقها على "عين" أمه أو أخته، وعلى "عين" زائر من الزوار، بل قد يوسع ذلك فيطلقها على "عين" القطعة و"عين" الديك مثلاً. ولكن تعلم الطفل للمعنى لا يستمر على هذه الصورة البسيطة، فإنه يسمع استعمالاً لبعض الكلمات توقعه في الحيرة. إنه يسمع استعمالاً مجازية لبعض الكلمة التي تعلمها للدلالة على بعض أجزاء الجسم الإنساني أو بعض الأدوات والموضوعات. وقد تكون الصلة قريبة بين الاستعمالات المجازية وبين ما تعلمه أولاً وقد تكون بعيدة. إنه تعلم أن "الرجل هي ذلك الجزء من جسمه، ثم يسمع أمثال "رجل الكرسي" و"رجل المنضدة. و"عين" إنه يسمع عبارات مثل "عين الإبرة" أي هذا الثقب الذي يدخل فيه الخيط، "عين الجمل" إذا كان قاهرياً بمعنى "الجوز"، وإذا كان ليبياً فهو يسمع "عين مارة" للدلالة على موضع بعينه. وكثيراً ما يستغل الآباء هذه الظاهرة للسيطرة على الطفل، ولتخويفه وضمان طاعته، فنحن نقول له إن "العصفورة" قالت لي عنه كذا وكذا، وإنها تخبرنا بكل ما يفعله وبكل ما يدور في نفسه. وهكذا يرتفع المجاز إلى مستوى الأسطورة، ولكن الأطفال لا يلبثون أن يدركوا هذه "الأكاذيب" في سن مبكرة³⁰.

نوعية اللغة التي يتعلمها التلاميذ في المرحلة الأولى ووسائل التقريب بينها وبين اللغة الفصيحة

يمثل التعليم في المرحلة الأولى ركناً أساسياً من أركان إعداد المواطن للحياة، وتأهيله للتعامل مع البيئة بصورة تسمح له باكتساب خبراتها ومعارفها، وعلى وجه تجعل منه عضواً ذا دور فعال في مجتمعه الصغير أو الكبير على سواء. ولا يتم ذلك في نظرنا إلا بتخطيط دقيق لما ينبغي أن يلقي إليه من علوم ومعارف في هذه المرحلة، آخذين في الحسبان نقطة البداية ونقطة النهاية في كل ما نرسم ونخطط، حتى نضمن للمتعلم تدرجاً طبيعياً مناسباً لهاتين النقطتين كليهما، وحتى نأخذ بيده نحو الهدف المرسوم في تأن يتصف بالعمق والجدة. وكان من الطبيعي أن يواجهوا أول الأمر في هذا المجال بموضوع قديم حديث، هو تحديد "نوعية اللغة" أو "الصيغة اللغوية" التي ينبغي أن يؤخذ بها في هذه المرحلة أو التي يمكن أن تكون المنطلق لما نتوي تقديمه للتلاميذ في السنوات الأولى من التعليم.

مستويات اللغة وكيفية التعامل معها في مجال التعليم

في مقدور البحث العلمي الدقيق أن يقرر أن هناك في البيئة العربية الواحدة مستويات لغوية ذات سمات وخواص مختلفة. أهم هذه المستويات وأقربها إلى الواقع وأكثرها شمولاً واتساعاً ثلاث هي:

1- العامية.

2- الفصحى المعاصرة.

3- فصحى التراث.

العامية: هي لغة الحديث اليومي الدارج ولغة الحياة العامة بكل ما فيها من أوجه النشاط الإنساني على مستوى الجماهير العريضة. وهذه صيغة لغوية معروفة مستقرة في كل بلد عربي.

والفصحى المعاصرة: صيغة لغوية تستخدم في الكتابة في الأغلب الأعم. فهي لغة التأليف في شتى مناحيه وفنونه. وهي بالإضافة إلى ذلك لها وجود من نوع ما في الكلام المنطوق والاستعمال الفسيولوجي الحي، كما يبدو مثلاً في المحاضرات الجامعية الجيدة، والخطب السياسية الجادة، وفي الندوات العلمية ذات المستوى اللائق، وفي نشرات الأخبار. وهذه الفصحى تراعي قواعد الإعراب في جملتها، وتسير -بصورة عامة- على قوانين نظم الكلام العربي. كما ألفناه في عصور العربية الأصيلة. ولكنها -في الوقت نفسه- طورت لنفسها وسائل حديثة من التعبير³¹. هذا التصنيف الثلاثي لمستويات العربية يرشدنا في الحال إلى طريق اختيار الصيغة اللغوية المناسبة للمراحل الأولى من التعليم في الوطن العربي كله. إننا نختار أن تكون الفصحى المعاصرة هي محور العمل في هذه المراحل وهدفنا الأول فيها، على ألا يقف بنا الأمر عند هذا الحد، بل لا بد من الالتجاء إلى المستويين الآخرين والتماس العون منهما، بحسب الحاجة، وبحسب الحال ومقتضياته التربوية والثقافية والقومية.

تحديد "نوعية اللغة" ويخضع لمبدأين اثنين متصلين غير منفصلين هما:

1- المبدأ التربوي المقرر الذي ينص على وجوب الانتقال من المعلوم إلى المجهول في عملية التعليم بعامية، ويضمن لنا هذا المبدأ أن ينطلق المتعلم من أرض صلبة تمكنه من الترقى والتدرج في رحلته التعليمية في تأن ونجاح مؤكد. كما يحميه من الوقوع في متاهات أو آفاق مجهولة تعوق مسيرته وتحرمه من استغلال طاقاته وقدراته الذاتية في اكتشاف طريقه نحو اكتساب مزيد من الخبرات والمعارف.

2- المبدأ التقليدي العام أو المقرر بين الأمم الذي جرى -وما يزال يجري- على أن تكون اللغة التي تقدم للتلاميذ في أية مرحلة هي اللغة القومية، تلك اللغة التي تخلو أو تكاد تخلو من الطابع المحلي أو البيئي، والتي تنسب إلى القوم بعامية وتستخدم في تسجيل معارفهم وثقافتهم الأصيلة، وتربط حاضريهم بماضيهم وتأخذ بيدهم نحو مستقبل أكثر ازدهاراً وتقدماً³².

مناقشة القولين:

إن كلا من الاتجاهين السابقين -إذا أخذنا بأيهما وحده على إطلاقه دون تحديد- تقف في طريقه عقبات، وتقابل تطبيقه مشكلات قومية وتربوية وعملية.

فالبداية بالعامية في المراحل الأولى من التعليم على الرغم من اتساقه الظاهري مع مبدأ وجوب الانطلاق من المعلوم إلى المجهول، يثير على الفور هذا السؤال: أية عامية تختار؟³³.

أسباب اختيار الفصحى المعاصرة:

السبب الأول: أن هذه الفصحى هي "اللغة القومية" للعرب في عصرنا الحديث. إنها حين تستخدم في الكتابة أو الحديث يفهمها العرب أينما كانوا وأينما حلوا، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة قليلاً بحسب السن أو الثقافة أو درجة التعليم. إن المؤلف أو الباحث أو المقال المعين يكتب بها في القاهرة أو في بيروت أو بغداد أو غيرها من العواصم العربية فيلتقطه الناس ويتناولونه بالقراءة، ويدركون ما فيه من سهولة ويسر، ويستوعبون مادته إلى حد كبير.

إن العربية الفصحى - بهذا الموقع وتلك الخواص والسمات - تفي بأغراض المبدأ الثاني الذي قررنا وجوب اتباعه فيما سبق، وهو "كون اللغة التي تقدم في المراحل الأولى من التعليم هي اللغة القومية"³⁴.

السبب الثاني: الفصحى المعاصرة - كما نعهدها ونستخدمها الآن - ليست مجهولة تمام الجهل للمتعلمين، وإن شق عليهم التحدث بها أو استخدامها في التعبير عن ذوات أنفسهم، وهذه هي المشكلة الحقيقية التي تقابل تلاميذ المراحل الأولى، حيث إنه من المقرر وجوب البدء معهم بما يعرفون وبما يستطيعون استخدامه في الحديث، وبما يألونه ويقع تحت خبرتهم من ثروة لغوية. وهنا ينبغي أن نقف وقفة متأنية لتدبر الأمر.

طريقة التدرج في العملية التعليمية: علينا في هذا الموقف أن نلجأ إلى طريقتين اثنتين متصلتين غير منفصلتين.

أولهما: استغلال ما لديهم من معرفة بعناصر الفصحى المعاصرة، تلك المعرفة التي حصلوا عليها بطريق الاستماع إلى الأحاديث الجيدة من الإذاعة وغيرها من وسائل الإعلام والتثقيف. إن هذه العناصر - على الرغم من قلتها - تمثل خطوة على الطريق.

ثانيهما: "وهو الأهم" سبيلنا إلى استغلال هذه العناصر الفصيحة وتنميتها هو اتخاذنا العامة "في الوطن العربي المعين" مدخلا إلى الفصحى ومعبرا إليها. وربما يسهل علينا ذلك ما نلمسه من تداخل بين الفصحى المعاصرة وبعض عناصر العامة، وبخاصة فيما يتعلق بالثروة اللفظية. إننا - بقطع النظر عن قواعد الإعراب وبعض قواعد النظم - نستطيع الانتقال من العامة إلى الفصحى، كما نستطيع أن نثر على عناصر فصيحة مهمة فيشأنا العامة. إن العامة في الوقت الحاضر ليست بعيدة عن "الفصحى المعاصرة" بالقدر الذي يظنه بعض الناس. إن الدراسة الجادة والبحث العلمي الدقيق كفيلا بالعثور على عناصر مشتركة كثيرة. تصلح في نظرنا نقطة بدء موقوت لتعليم اللغة القومية في المراحل الأولى"³⁵.

خاتمة:

اللغة هوية شخصية الفرد، وعنوان انتماء الأمة، ودليل حضارتها وريقها، واعتناء الأمة بلغتها يجعلها أصيلة في وجودها متأصلة بوجدانها في عمق التاريخ، وإمكاناتها صنع مجدها بأيديها، وتقدمها في ميادين الحياة. فباللغة نفكر، وبالفكر نتج. فاللغة عملية معقدة في إنتاجها وتعلمها، تحتاج إلى مفكرين وعلماء يصوغون طريقة تلقينها للنشئ بمناهج علمية تقنية، تكفل بهذا الدور علماء اللغة. ومعلمين يتقنون تقنية عملية التعليم استنادا لما قدمه علماء اللغة، والخبرات المتراكمة من أجيال المتعلمين. وبهاته المناهج العلمية التي تجعل في حساباتها الواقع وأحواله، والمستقبل وتحدياته، وتسعى إلى حل المشاكل وتذليل العقبات في طريق اللغة تعليمها لها وتعليمها بها، وتستقي ذلك كله من الداخل لا بواسطة الحلول المستوردة، يمكن لواقع اللغة الأم أن يتحسن، وأن تسير ركب الحضارة بل تتقدمه ولها من المقومات ما يؤهلها لذلك بكل جدارة؛ إذا وجدت من يزيل عنها غبش التاريخ المظلم، ويرد لها سمعتها بإحسان عرضها، وحسن تعليمها، والدفاع عنها وعن أجمادها.

هوامش البحث

¹¹ د. معروف، نايف محمود (خصائص العربية وطرائق تدريسها) - لبنان - 1998، ص (18-19-24-25).

² د. السيد، محمود أحمد (في طرائق تدريس اللغة العربية) - سورية/دمشق - 1988، ص (11).

³ لويس معلوف - المنجد - بيروت - ط 19-1966 - ص 726

⁴ أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة. ج 1. ص 34.

⁵ زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420 هـ / 1999 م. ص 283.

⁶ د. معروف، نايف محمود (خصائص العربية وطرائق تدريسها)، 1998، ص (16).

⁷ محمود السعمران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: طبعة 2 - القاهرة 1997. ص 49.

- ⁸ عبد الكريم بن علي بن محمد النملة: المَهْدَبُ في عِلْمِ أَصُولِ الْفِقْهِ الْمُقَارِنِ، ج3، ص1036
- ⁹ سورة إبراهيم: الآية4.
- ¹⁰ الأمدى: الإحكام في أصول الأحكام . ج1، ص74
- ¹¹ محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. ص.50.
- ¹² إبراهيم محمد أبو سكين: دراسات لغوية في أمهات كتب اللغة، ص60.
- ¹³ جون ليونز: اللغة وعلم اللغة، الناشر: دار النهضة العربية، الطبعة: الأولى، ص39
- ¹⁴ د. وافي، علي عبد الواحد (علم اللغة)، ص (96-104).
- ¹⁵ د/ محمد الراجحي - د/وحيد قدورة: المكتبة المدرسية في التعليم والتعلم (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، دار التوثيق والمعلومات تونس، 1996. ص17.
- ¹⁶ د.معروف، نايف(خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها) ، ص (31-32-33).
- ¹⁷ د. السيد، محمود (طرائق تدريس اللغة العربية) - دمشق1988 - ص (16-38-39).
- ¹⁸ د.معروف، نايف (خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها) ، ص (31).
- ¹⁹ د. السيد، محمود أحمد (طرائق تدريس اللغة العربية) - دمشق1988 - ص (38).
- ²⁰ د.معروف، نايف (خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها) - ص (33).
- ²¹ رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللغة، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الثالثة 1415هـ-1995م. ص128.
- ²² د. السيد، محمود أحمد (في طرائق تدريس اللغة العربية) - دمشق1988 - الفصل الخامس عشر - ص (647-654).
- ²³ جامعة الدول العربية (اجتماع خبراء متخصصين في اللغة العربية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- عمان 1974) - دار الطباعة الحديثة/القاهرة- 1975.
- ²⁴ عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م. ص771.
- ²⁵ رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللغة: ص129.
- ²⁶ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في ضوء المناهج الحديثة ، د. مختار الطاهر حسين ص 114 - 116
- ²⁷ رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الثالثة 1417 هـ - 1997م. ص7.
- ²⁸ د. محمود فهمسحجازي: علم اللغة العربية، الناشر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. ص52/53.
- ²⁹ أحمد مختار عمر: أسس علم اللغة، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الطبعة الثامنة 1419هـ-1998م. ص254.
- ³⁰ محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: طبعة 2 - القاهرة 1997. ص222.
- ³¹ المرجع نفسه: ص227.
- ³² كمال بشر: دراسات في علم اللغة، الناشر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. ص218....
- ³³ المرجع نفسه: ص223/22.
- ³⁴ المرجع نفسه: ص229.
- ³⁵ المرجع نفسه: ص230/231.